

اجتهادات البيروقراطية .. والطبقات

ناقشني عدد من الأصدقاء في خلاصة الاجتهاد المنشور في 28 سبتمبر الماضي عن كتاب المستشرقين الروسيين إيجور بيلياف وإيفيجيني برياكوف «مصر في عهد عبد الناصر». تتلخص هذه الخلاصة في أن ما سماه المؤلفان طريقاً غير رأسمالي نحو الاشتراكية لم يكن إلا الطريق إلى تكريس رأسمالية الدولة، وصعود طبقة بيروقراطية امتلكت نفوذاً قوياً إلى قمة الهرم الاجتماعي - الطبقي. دارت المناقشة بالأساس حول مفهوم الطبقة. فهل يمكن الحديث عن طبقة بيروقراطية بالمعنى العلمي، وكيف توجد طبقة اجتماعية خارج عملية الإنتاج؟ السؤال مهم في العلم الاجتماعي بوجه عام، وليس فقط في علم الاجتماع الماركسي الذي انطلق من مؤلفي الكتاب، واستندا إليه في تحليلهما، من زاوية أن السياسات الاقتصادية والاجتماعية في ستينيات القرن الماضي قوضت الرأسمالية التقليدية، وأحلت محلها رأسمالية سلطة الدولة، وخلقت الطبقة البيروقراطية التي أثارت المناقشة المشار إليها. ويثير السؤال عن إمكان وجود طبقة اجتماعية خارج وسائل الإنتاج سؤالين آخرين. أحدهما عن التكوينات الاجتماعية - الطبقيّة في العصر الرأسمالي، وهل ترتبط كلها بعلاقة مع هذه الوسائل؟ والثاني هل تقتصر تلك التكوينات على الطبقات التي تملك وسائل الإنتاج أو تعمل بأجر فيها؟. تفيد أي نظرة في التكوينات الاجتماعية الحديثة أنها أكثر تعقيداً من الصورة النمطية التي اختزلت فيها أفكار كارل ماركس عن الطبقات إلى بورجوازية وبروليتاريا. وفي هذه التكوينات طبقات لا تدخل في علاقة مباشرة مع وسائل الإنتاج، وأهمها

الطبقة الوسطى بشرائها المتعددة الدنيا والمتوسطة والأعلى، والتي يكاد كل منها يكون تكويناً طبقياً في حد ذاته. وليست هناك علاقة مباشرة تربط صغار ومتوسطى الموظفين مثلاً، أو المهنيين، بوسائل الإنتاج. ولكن توجد علاقة غير مباشرة تختلف أشكالها وتتنوع وفق شرائح هذه الطبقة، وحسب طبيعة عمل كل منها. وقياساً على ذلك، يجوز الحديث عن طبقة بيروقراطية تربطها بوسائل الإنتاج علاقة أقوى من الطبقة الوسطى. فالطبقة البيروقراطية تسيطر على وسائل الإنتاج بما تملكه من نفوذ سياسى وإدارى يمنحها القدرة على التحكم فيها، بحيث يبدو الأمر فى كثير من الأحيان كما لو أنها تملكها من الناحية الفعلية.